كيف الذهاب يا زيزي

بالأمس ماتت زيزي.

صنعت لي قالب الكيك الذي أحبه وقالت أنا زوجتك ولست خادمتك لتطلب الكيك بهذه الطريقة السخيفة، ثم دخلت في سريرها. في الحقيقة، أنا لم أطلب الكيك بطريقة صعبة، لم أطلبه من الأساس، لكنها عانت من بعض الهلوسات في أيامها الأخيرة. تناولتُ الكيك في الصباح، وصحت هي لتصب لنا الشاي باللبن وتزينه بنعناع جاف مفروك بعناية فوق الكوب. ذات مرة أخطأتْ ووضعتْ ملوخية جافة بدلاً من النعناع. شربتُ الشاي باللبـن حينها ولم أعترض، لكني أعرف أنها كانت غلطة مقصودة لتقيس ردّ فعلي وتحللها ثم تتشاجر.

لا أعـرف كيف ماتت زيزي تحديـدًا، لقد خرجتُ أنزِّه كلبها الصغير "جومـي"، كما أفعـل في كل صباح. كان واقفًا أمامـي وذيله يقظ يتحرك بنشاط خلفه، فأنهيت فطوري سريعًا قبل أن يبدأ وصلة النباح، وخرجنا معًا. حين عدنا لم تكن في الردهة، ظننتُ أنها في المطبخ مشـتبكة مع طعام

ما، لكن بعد قليل اكتشـفتُ أنها ليست هناك كذلك. وعندما نبح جومي كانت هي -على الأرجح- ميتة في الشرفة الداخلية في حجرة نومنا، وبيدها حزم البصل التي كانت تحفظها على الجدران.

بالطبع لم يكن اسمها زيزي، لكني لن أسجل اسمها لأنها لم تحبه أبدًا، ولا جـدوى من محاولة التخمين، لأنها لم تكن زينب ولا زينات ولا حتى زكية. وعلى شـاهد قبرها صممتُ على كتابـة زيزي، اعترض أخوها بأن عليها أن تقابل الله باسـم يليق بسـيدة تقيـة. لكني لم أتراجع، صلّبتُ ملامحي دون كلام، فانتهى النقاش على الفور.

لم أجد جومي في المنزل عند عودتي، بحثتُ عنه قليلاً ثم انسحبت في نوم عميـق فوق الكرسي الضخم في الردهة. جاءت زيزي كأنما ليس للموت وجود في عالمها، ألقت الغطاء فوق جسدي غاضبة. أكاد أسمعها بوضوح وهي تغمغم عن أن الكرسي ليس مكانًا مناسبًا للنوم، وعن موجات البرد الحـاد التي تزيد حين أنام في مكان بارد. لم أرد، كما أفعل في كل مرة، تجنبًا لسخطها.

حين صحوتُ ليلاً، كان الظلام ثقيلًا منسدلًا، وخيوط الضوء متوازية على الأرض عبر الشرفة. كانت زيزي تغني في المطبخ أغانيها الفرحة، تمط اللحن فتفسده وتنشز بصوت رفيع. ربتُّ على رأس جومي برفق ثم رفسته بقوة ليصرخ فتأتي مسرعة لتطمئن عليه. لكنها لم تحضر، ظلت تغني أغانٍ غير مناسبة لليل ثقيل مثل ذلك.

حين ماتت، تركتها على الأرض وشـغَلتُ الهاتف لعدة دقائق لأعلن رحيلها، لكن حين عدت كانت قد عادت للفراش ووضعت الأغطية فوق وجهها الطويل، كان أنفها أكثر شحوبًا عن ذي قبل، كورقة شجرة جافة على وشك السقوط. لم تتوقف عن ألاعيبها قط حتى في العالم الآخر.

في الصباح، كنت ما زلت على الكرسي الضخم، وكانت قدماي ممدودتين أمامـي خارجه، لأنه أقصر من طول سـاقيّ بعدة بوصـات. كان ظهري مشـدودًا، أكاد أمزق مفاصلي القديمة. متلحفًا بسـترتي الجلدية الزرقاء، جلستُ أنتظر. دخلت زيزي من الباب بصحبة جومي وبيدها طعام كلاب جاف. تذكرت أني نسـيت شراءه في آخر مـرة كنت بالخارج. لم أتكلم أو أعتذر، ولم تعقِّب هي كذلك. لكنها لم تقدم لي الغداء، بينما سمعت أنفاس الكلب فوق صحنه، أنفاس دافئة ولعق مستمر.

هدأتُ قليلاً وصممت على تجاهلها. لن تخدعيني بحيلك هذه يا زيزي. تداعى إلى ذهني حيلتها الأولى حين رأيتها لأول مرة. كانت منتصبة كرَبَّةٍ صغيرة فوق سلم خشبي يصلها بسطح منزلهم. تستعد لترفع قدمها اليسرى فوق السـطح بينما كانت اليمنى ما تزال فوق آخر السـلم. كانت ترتدي جونلـة طويلة لكني لم أرَ ما أسـفلها أبدًا. مالت برأسـها تجاهي ورأتني، كان شـعرُها طويلاً وراءها ومربوطًا بعنايـة، طويلًا حتى أنه تدلَّى ليصل إليّ بالأسفل، طويلًا حتى أني رغبت في تسلقه لأكون بجوارها.

لكنـي حين قابلتها مرة أخرى كان شـعرها قصيرًا، سـألتها عما رأيته فقالت: "كان بجانبي حصان، هذا شعره". صمتُّ حينها ولم أُعلِّق. بطريقة ما أعجبني الرد، تخيلت نفسي أتسلق ذيل حصان، فيرفسني ولا أقع؛ يرفسني ثانية، فنمتطيه معًا وأرتدفها وذراعاي حول بطنها المكور الصغير.

بهتت هذه الصورة بعد سنوات، وبقي شعور بالبله يصيبني كلما تذكرت. حين واجهتها أخيرًا بتلك الحكاية قالت إنها لا تعلم شيئًا عما أحكي، وإنهم لم يملكوا سـلمًا خشـبيًا يومًا في منزل أبيها. وهكذا كانت كل المناقشات تنتهي إلى لا شيء. أحدثها عن حصان فوق السـطح واقفًا بجانبها فتنكر وجود سـلم خشـبي. يمكن أن يكون معدنيًا يا زيـزي، يمكن أن يكون حجريًا يا حبيبتي، يمكن أن يكون أي شيء، لكنها قصة عن شعر الحصان الطويل وليس عن كل شيء آخر.

كانت تسعل بقوة قبل رحيلها، كأن الصدرَ يتهيأ لطرد الروح. مزجتُ العسـل بالليمـون وقدمته لها بالفراش، فقطرتـه بعينيها وقالت إن هكذا أفضل، فالعسـل ينظف العين والليمون يزيد من اتسـاعها. الغريب أنها توقفت عن السـعال بعدها. حـين ماتت أدركت أن حواسـها كانت قد انفتحت على بعضها، لأني رأيتها خلسـة تضع حبـة لوبيا صغيرة بأنفها. الآن فهمت كل شيء.

في الشارع، سرت بجانب محال بيع الكنفاه التي كانت تطرز لها أحيانًا.

أخبرتني قديمًا بأن لوحاتها تُباع على نحو جيد. لكني وجدت لوحاتها المطرزة على الأرفف بصناديق العرض. يا لك من مسكينة يا زيزي! أمضيتِ سنواتك تطرزين بألوان غير متناسقة لوحات الكنفاه المملة السخيفة، وتأملين أن ترى جدران سيدة سعيدة ولديها خادم يدهن قدميها بالفازلين كل مساء، فتنام وعيناها نصف مفتوحتين على لوحتك المعلقة على الجدار المقابل لفراشها.

ابتعتُ كل لوحاتها، ملأتُ بها الأريكة وسهرت ليلة كاملة أجردها من الأُطُر الذهبية العريضة. ثم راكمت الأقمشة المطرزة فوق بعضها بعناية، وطويت كل مجموعة على حدة، ثم ثبتُّها بخيوط سميكة. في المقابر، رشوت الحارس ليتجاهلني. أمضيت أيامًا أذهب في الصباح وأعود إلى المنزل في المساء.

هناك كنت أحفر بإزميل صغير فتحة صغيرة أعلى شاهد قبرها. كان الشاهد كنافذة صغيرة مسدودة تمامًا بجانب رأسها. لقد أمرت أن تدفن هكذا، قدماها بالداخل ورأسها باتجاهنا، لعلها تحب الإنصات لمن يزورها، أو ربما ترغب في شم الورود التي يعلقونها فوق الشاهد تحية لها وترحمًا.

نجحتُ في صنع فتحة صغيرة رفيعة بأعلى حرف الزين من اسمها، وحتى الياء المنقوطة. انتظرتُ قليلاً حتى يتجدد الهواء بالداخل وحتى يتسلل النور، ثم أسقطت أول لفافة من الأقمشة. فكرت أن أصنع فتحة أخرى أسفل الشاهد، ربما تود الرد عليّ من خلالها. لكني تراجعت وعدت للبيت.

فوق الكرسي الضخم، وجدت لوحة مؤطرة بإطار خشبي رفيع. كانت إحدى اللوحات التي ألقيت لك بها. كانت لفتاة ترقص. راقصة يا زيزي؟! لا أتعجب لأخيكِ حين قال لا بد أن تقابلي الله باسم سيدة تقية. أنتِ لم ترقصي قط في حياتك، كنتِ تفضلين الغناء. اخترتِ دومًا أن تكوني المُحرك الرئيسي لكل شيء، والغناء هو ما يتحكم بأجساد الراقصات. الآن رضختِ وأصبحتِ ترقصين يا زيزي.

استمر تبادل الرسائل بيننا نهارًا، ألقيت لها بلوحاتها وإبرة الكنفاه الطويلة وخيوط ملونة كثيرة، وخواتمها الفضية وطبق جومي، الذي لا أذكر إن كانت أمرت بدفنه معها أم لا. وفي الليل، كانت ترد على رسائلي، تحرق لمبات المنزل الواحدة تلو الأخرى، تُفجِّر الصنابير فوق الأحواض وتُغرِق السجاجيد، تفتح بابي للقطط وتغلق الشبابيك. تشاكسني كعادتها، وإن كنت أصبحت متأكدًا من أن للموتى مزاحًا ثقيل الظل ومزاجًا كئيبًا.

فوق الكرسي الضخم، أمام باب البيت، أتلحف بالسترة الجلدية الزرقاء، وجومي يلعق قدمي الناتئة. كانت زيزي تطوي الغسيل، تمسك قطعة الملابس وتطويها بعناية على حسب درجة حبها لها. يمكنني أن أرى مدى رضاها عما أرتديه من كيفية طيِّه، ومن الخطوط العشوائية المكرمشة فوقه ومن الطيات المتعرجة. كانت ترفض استخدام المكواة، فلا يكون أمامي إلا الامتناع عن ارتداء ما لا تحبه.

لكنها في هذه المرة كانت تلقي ما لم تستسِغه في حفرة ما بجانب قدميها، يخرج منها ألسنة نار طويلة ودخان أسود. سألتها عما تفعله، قالت إنها غسالة جديدة تعمل بالطاقة الشمسية. صمتُّ مرة أخرى وشعر حصانها المُدّعى يتطاير خلف رأسها العجوز.

في اليوم الأخير، ذهبت لقبرها ومعي دفترها الصغير، مدونًا به أسعار خيوطها الملونة وأسعار طعام جومي الجاف وأسعار خدع أخرى كثيرة لا أحد غيرها يستطيع فك طلاسمها. مسكتُ الدفتر ووضعته بحرص داخل الفتحة. كانت الفتحة رفيعة للغاية، بالكاد ضمت دفتيّ الدفتر. لم أفلته، إنما ظلت أصابعي متشبثة بطرفه من العالم الآخر. همستُ لها:

– خديني يا زيزي.

لكنها لم ترد، امتنعتْ منذ موتها عن الرد.

هل تومئين برأسك يا زيزي؟ أعرف أنك تقولين لا. لكنك لم تعودي في موضع اختيار. لقد فزت أنا بالجولة الأخيرة يا زيزي، وضيّعت أشياءك أسفل الكرسي الضخم وأغلقت أذنيّ دون غنائك السيئ، والتهمت غداء جومي الجاف في الليالي الرطبة المحملة بالعرق والتراب.

وحين تأتين مرة أخرى، يا غبية، احضري معك ورقة رُسم عليها، بخطوط كبيرة لأراها، طريق الذهاب. إن كنتِ لن تتحدثي لي ثانية فاكتبي، اكتبي بخط النسخ حتى أفهم. فمثلك لم يخلق ليكتب بالرقعة يا زيزي.